دور العلماء والرباطات في مواجهة العدوان الأسباني على الجزائر

أ/ عبد القادر فكاير،

المركز الجامعي خميس مليانة

مقدمة :

تعرضت الكثير من المناطق الساحلية الجزائرية إلى سلسلة من الهجمات الأسبانية منذ بداية القرن السادس عشر ، واستمر العداء بين البلدين إلى غاية سنة 1792 تاريخ تصفية الوجود الأسباني من الأراضي الجزائرية .

ومن الفئات التي تولت الدفاع عن حمى البلاد ومواجهة خطر الغزاة ؛ العلماء من رجال الدين ومؤسسة الرباطات التي كانوا يشرفون عليها . ولما رأى الحكام الأتراك جدية هذا التنظيم في مقاومة المعتدين ، تعاونوا مع بعض الرباطات ومع المشرفين عليها ونظموها . فقد تولى الباي محمد بن عثمان الإشراف ودعم رباط وهران . وهناك من الشيوخ من استشهد في تلك المواجهات مع الأسبان. وهناك من العلماء من كانوا يحرضون بقصائدهم على طرد الغزاة بشحذ الهمم ، ويثنون على الحكام الذين تحقق النصر في عهدهم .

1 ـ الربط قاعدة أمامية لرد العدوان :

اشتهرت الرباط لحراسة الثغور منذ أن اشتدت غارات المسيحيين على شواطئ المغرب العربي والشمال الإفريقي إثر الحروب الصليبية ، واسترجاع المسيحيين لجزيرة صقلية وإثر غارات الأسبان والبرتغاليين على قواعد البلاد الإسلامية شواطئ إفريقيا الشمالية . فإثر مؤتمر توردیسیاس (Tordesillas) سنة 1494، تركزت أنظار الأسبان على السواحل الجزائرية ، وأدت إلى احتلال مدن ساحلية جزائرية امتد نطاقها من عنابة شرقا إلى هنين غربا ، وذلك ابتداء من سنة 1505. (فكاير، ع 2001:.41- 62)

وهذا ما إلى تنشيط الربط . كان جلها من تأسيس علماء الدين وتحت إشرافهم ، لما لمسوه من ضعف الملوك عن المقاومة وتخاذل الأمراء . (البوعبدلي ، 1973: 25) فقد كان العلماء يتأذون كبقية الناس من أذى الأسبان وروى الجامعي أن المرابط علي أبا حسون العبدلي أنهم كانوا في حوز تلمسان لا يهدأ لهم بال ولا منام حتى جعلوا عليهم من يحرسهم ، وأنه إذا نام أحدهم جده يهذي بإغارة النصارى عليهم ، وقد يصرخ في نومه . (أبو القاسم سعد الله ، 1981: 199.) ولهذا

كان هؤلاء العلماء يلجؤون إلى إنشاء الربط . ويقوم رؤساء القبائل بإمداد الرباط بالمال والرجال. (البوعبدلي ، 1973: 25.)

وكانت الرباطات تمتاز بقربها من مواقع الأعداء ، وأن تأسيسها يهدف بالدرجة الأولى إلى والدفاع عن حدود الإسلام مع أداء مهمة العلم أيضا. فكان الطلبة جنودا وعلماء في نفس الوقت . وظلت الرباطات في الغرب الجزائري حيث ظل الأسبان في وهران والمرسى الكبير . فكان بوهران رباطان أحدهما قبل الاحتلال الأسباني والثاني استحدث بعد الاحتلال . أما الرباط الأول فكان يقع في السفح الشمالي الشرقي لجبل مرجاجو غير بعيد عن البحر ، كان يدعى رباط صلب الفتح (يذكر أن عبد المؤمن بن علي هو الذي أطلق عليه هذه التسمية في سنة 1145) . وعلى هذه الخرائب بنى الأسبان برج أطلقوا عليه اسم سان غريغوريو San) (Gregorio ، لحراسة طريق المرسى الكبير الذي يمر بالقرب منه . (بوعزيز ، 1985: 153.) وهناك رباط جبل المايدة ، تركز فيه بعض المجاهدين لمقاومة الأسبان ، ثم ورد عليه عدد من الطلبة والعلماء ، وأخذ الباي محمد الكبير يزودهم بالمؤن والأسلحة .

وكان الشيخ محمد التواتي يتولى حماية بجاية من الأسبان ، وأن زاويته كانت ملجأ للمجاهدين والبحارة ، وحين توفي الشيخ سقطت المدينة في أيدي العدو وفر منها الأمير الحفصي . وإثر ذلك انتشرت نوع من الربط بوادي بجاية (الصومام) . قبل سكان المدينة الذين غادروها إثر الاحتلال الأسباني لها . وكانت كثيرا ما تشد أزر الرباط في أوقات الحروب. (البوعدلي، 1973: 26.)

وكان الشيخ محمد بن علي المجاجي المعروف بـ (أبهلول) يتولى رباطا قرب تنس الذي اشتهر بكونه زاوية ومدرسة ورباطا ، كانت هذه الزاوية مركزا لاستقبال المجاهدين.. (سعد الله ، 1982: ج.1، .272.)

قال الحسن الشريف : ((خرجنا إلى ثغر تنس فلقينا سيدي محمد بن علي وأنزلنا بزاويته مجاجة ، وكنا في جوع ونحن نحو 1300 نفس ... وأمرنا بالجلوس على 24 جلسة ، وأفاض علينا الثريد واللحم والعسل والسمن .)) (الحفناوي، 1991:

ج.2 .281.) مات أبهلول قتيلا سنة 1002هـ ، وولد عام 945هـ. رثاه تلميذه سعيد قدروة في قصيدة تتالف من 54 بيتا مطلعها :

مصاب جسيم كاد يصمني مقاتلي ورزء عظيم قاطع للمفاصل

(أنظر كامل القصيدة في : الحفناوي1991: ج.2 .281- 284.)

وقد اختلفت نشاطات العلماء وزعماء الربط في مواجهة العدوان الأسباني ، فمنهم من كان يتولى تقديم العون المادي للمقاتلين كما رأينا مع الشيخين أبهول والتواتي ، فإلى جانب ذلك كان آخرون يستعملون وسائل أخرى نذكرها فيما يلي.

2 تحذير بعض العلماء من وقوع الغزو :

وقد اتبع هذا الأسلوب الشيخ عبد الرحم الثعالبي الذي (ولد بوادي يسر سنة 1384 ، توفي سنة 1479 م .) ، فكانت الجزائر في عهده مقسمة بين بني حفص في الشرق تضم حواضر قسنطينة وبجاية وعنابة ، وبني زيان في الغرب . وكان مدينة الجزائر وما جاورها من مناطق الوسط ميدان نزاع بين الدولتين المذكورتين . في هذا الظرف كتب الثعالبي رسالة بعثها إلى محمد بن أحمد الكفيف بأحد نواحي بجاية. فيها تعبير عن فرحة الثعالبي في كون أهل بلد الشيخ الكفيف قد أخذوا يعدون أنفسهم للجهاد بصنع وسائل الدفاع مثل درق العود (نوع من الدروع تقي حاملها من الضربات). وأن أهل مدينة الجزائر أخذوا هم كذلك في الاستعداد للجهاد بعدما حرضهم هو على ذلك . واطمأن الثعالبي على المنطقة التي يقطن بها محمد الكفيف عندما أعلم من قبل والده أحمد الكفيف أن السكان قرروا إخراج الأطفال والنساء وممتلكاتهم من المدينة إذا حل بلادهم الغزو الخارجي ، وألا يبقوا فيها الرجال من المقاتلين .وطلب الثعالبي من الشيخ الكفيف أن ينبه فقهاء بجاية وسكانها في البادية والحضر الاستعداد للجهاد لأنه لاحظ غفلتهم.

(للاطلاع عن النص الكامل للرسالة أنظر : سعد الله ، 2005: المجلد الأول، 208- 211.)

وخاطب الشيخ محمد التواتي البجائي أهل وهران يحذرهم من الاستمرار في غفلتهم وتقاعدهم عن حفظ بلادهم ، فأخذ ينهاهم عن ذلك ويدعوهم إلى الاستعانة عليهم بأهل الأندلس لما تفرس فيهم من الحزم وخبرتهم في الحرب.

أيا أهل وهران انظروا نظر شفقة لبلدكم قبل أن تتردت

(أنظر بقية الأبيات في :الراشدي ،439 .)

يتضح من خلال قراءة هذه الأبيات أن القصيدة قيلت قبيل احتلال وهران من قبل الأسبان .

3 منهم من تحالف مع العثمانيين :

لقد تحالف بعض العلماء مع السلطة التي قامت في مدينة الجزائر لما كان لديهم من خلاف مع السلطات السابقة ، فرحبوا بقيام هذه السلطة تحت نفوذ العثمانيين الذين رأوا فيهم أن أمر الخلاص من الخطر الأجنبي سيتم على أيديهم . ومن هؤلاء الشيخ أحمد بن يوسف الملياني الذي كانت له خلافات مع حكام تلمسان . فاتصل به عروج وحدثه بواسطة ترجمانه قائلا له : ((إنني أنوي أمرا إن سهله الله فلا ننساك.)) (البوعبدلي،1972: 278.) . واتفق معه على إعلان الملياني وأتباعه تأييدهم للعثمانيين بينما تعهد عروج بعدم التعرض للملياني ولنسله ومن تعلق به ، كما أرسل خير الدين للشيخ هدايا ثمينة .

ومن الشيوخ الذين تحالفوا مع العثمانيين نذكر الشيخ محمد بن المغوفل ، من صلحاء الشلف في أوائل القرن العاشر ، والشيخ ومحمد المناوي الفقيه. (ابن مريم ، 266.) وأحمد بن القاضي الذي تولى القضاء ببجاية في عهد الحفصيين ، الذي اختلف المؤرخون حول اتصاله بالعثمانيين ، فمنهم من ذهب إلى أن ابن القاضي لما رأى العدوان الأسباني كاتب الخلافة العثمانية ، وهي التي أمرت عروج وإخوته بإجابة رغبته ، ومنهم من قال بأنه اتصل بهم هو وسالم التومي وسهلا عليهم دخول مدينة الجزائر ،. وهناك شيخ آخر تحالف مع العثمانيين وهو محمد بن شعاعة.

5 ـ منهم من تولى الجهاد بقلمه :

لقد خلف الكثير من العلماء والكتاب والشعراء صور المواجهة مع الأسبان، نقتصر في هذه الدراسة على ذكر بعض النماذج .

الشيخ علي إبراهيم المريني ، الذي خلف كتابا عنوانه "عنوان الأخبار فيما مر على بجاية" ، أشرف على نشره في المجلة الإفريقية تحت عنوان (Conquète de Bougie par les espagnols) ، في العدد 12 سنة 1868.تحدث فيه صاحبه عن الاحتلال الأسباني لمدينة بجاية .

ومن الذين مدحوا حسن بن خير الدين إثر فتحه لحصن المرسى وهروب الأسبان منه سنة 1599 ؛ الفقيه عبد الرحمن بن محمد في قصيدة مطلعها :

هنيئا لك باشا الجزائر والغرب بفتح أساس الكفر مرسى قرى الكلب

وله قصيدة أخرى يصف فيها حزن الباشا على من مات من المسلمين في هذه المعركة (معركة فتح الحصن) مطلعها :

أمولاي بالمختار من آل غالب أحبته والصحب كل الأقارب

(عن حياة الفقيه والقصيدتين أنظر ابن مريم: 129- 133.)

العالم الشاعر محمد بن علي المعروف بابن آغوجيل ، الذي حث حسين خوجة الشريف باشا على الجهاد ضد الأسبان في وهران . له قصيدة مطلعها:

جهز جيوشا كالأسود وسرحن تلك الجواري في عباب بحور

وبعد فتح وهران الأول سنة 1708 ، فاضت قرائح الشعراء فأعربوا عن ابتهاجهم بهذا الفتح . منهم مفتي تلمسان محمد بن أحمد الحلفاوي الذي ألف قصيدة مطلعها :

لما أراد الله بالدين جلا عن أرض وهران بني الكفر جلا

(أنظر كامل القصيدة في ابن ميمون: 249- 259.)

تولى شرحها تلميذه عبد الرحمن الجامعي ، الذي نظم قصيدة في نفس المناسبة مطلعها :

تلت رسل البشائر يوم عيد علينا سورة الفتح السعيد

(أنظر بقية القصيدة في ابن ميمون: 26- 261.)

محمد بن رقية التلمساني ، صاحب " الزهرة النايرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة " ، فيه ذكر للغارات التي شنها الأسبان على مدينة الجزائر . نشره سليم عمر في مجلة "تاريخ وحضارة المغرب"، العدد 3، سنة 1967، صص.2- 32. وقد شارك هذا المؤلف في المعركة (1775)، أنهى كتابه سنة 1779.

أحمد العنتري ، الذي خلف رسالة تتعلق بحملة أورياللي سنة 1775 . وكان الكاتب قد رافق صالح باي إلى الجزائر العاصمة رفقة جيشه للوقوف إلى جانب الداي . وقد كتب روايته سنة1777م. ترجمها فيرو (Feraud) إلى اللغة الفرنسية، منشورة في المجلة الإفريقية العدد 9، سنة 1865.

ووصف كاتب مجهول حملتي بارثيللو سنتي 1783 و1784. وهو عمل مازال مخطوطا عنوانه "تاريخ مجيء الأسبانيين إلى الجزائر " يوجد في المكتبة الوطنية الجزائر .

وأشاد ابن سحنون الراشدي بالنصر الجزائري على حملة بارثيللو الأخيرة (1784)، فنظم قصيده مطلعها:

يا بشير السرور سر في البلاد مسرعا فوق عاديات الجياد

(أنظر بقية الأبيات في ابن سحنون: .262- 263.)

ومن المواضيع التي ترتبت عن الوجود الأسباني في وهران والمرسى الكبير تعاون بعض القبائل مع الغزاة ، وقد أغضب هذا السلوك عبد القادر المشرفي الذي خلف رسالة عنوانها "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر" ، تحتوي على أخبار تتعلق بالقبائل المتعاونة مع الأسبان، فشنع بهم وذكرأنهم ((من الأعراب الذين ضعف إيمانهم)) (المشرفي ، :.12.). أنهاه صاحبه سنة 1764، نقله إلى الفرنسية (M.Bodin) سنة 1925، منشور بالمجلة الإفريقية لسنة 1924.

وهناك من العلماء من كان يثير النخوة والشهامة في نفوس المحاربين والحكام بالحديث عن المرأة المسلمة وهي في أيدي الأعداء ومن ذلك قول ابن محلى :

يا معشر الإسلام أين فحولكم أما ابصروا في السبت عبد الحرائر

وتحت اليهودي غادة عربية يعالجها الخنزير فوق المزابر

(سعد الله .1982: ج.1 ، الهامش رقم: 135:.201.)

وحظي فتح وهران الثاني بعدة مؤلفات ، وقصائد شعرية تصف الفتح وتمدح الباي محمد الكبير. منهم ابن زرفة صاحب "كتاب الرحلة القمرية في السيرة المحمدية" ، الذي كان مرافقا لجيش . وبدأ عمله هذا من الحصار إلى غاية تحرير وهران نهائيا . وأحمد بن سحنون الراشدي ، الذي كان هو الآخر مرافقا للجيش المقاتل . ألف كتابا سماه (الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني) يحتوي على فتح وهران وسيرة الباي .

أما القصيدة التي قالها في الفتح الثاني لوهران مطلعها :

أرج الفتح بالبسيطة فاح وكسى النصر بالبهاء البطاحا

(أنظر بقية القصيدة في ابن سحنون: 312- 313.)

أما أبو راس الناصري ، فله قصيدة مشهورة بالسينية مدح فيها الباي محمد بن عثمان مهنئا إياه بالنصر سماها ((نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران على يد المنصور بالله الباي سيدي محمد بن عثمان)) . شرحها فيما بعد في كتاب عنوانه ((عجائب الأسفار ولطائف الأخبار)) (ترجمه إلى اللغة الفرنسية السيد أرنو بعنوان : voyages extraordinaires sur l'Afrique Septentrionale, Alger, 1885..

منها هذه الأبيات :

لما أراد الله عود الإيمان بها أقام بالجزائر مذهب الدمس

خامس عشر من عاشر أناخ بها الاسبانيون أهل الشرك والرجس

(أنظر بقية الأبيات في : Arnaud, 1878,1879,1880,1881)

5. منهم من شارك بنفسه في المعارك :

هناك كثير من العلماء من شارك بنفسه في المواجهات مع الأسبان . فعندما تعرضت مدينة بجاية للغزو الأسباني في سنة 1510 وتولى سكانها في الدفاع عنها . كانوا مدعومين من قبل أربعة علماء مدينة بجاية ، وهم أبو أحمد بن اسماعيل بن علي الكتاني ، أبو اسماعيل بن ابراهيم الحنتاتي ، أبو يوسف بن الحسين بن علي ، أبو علي بن محمد (Feraud, Conquête de Bougie , 254.). غير أن سوء التنظيم ، وقلة الاستعداد والتدريب القتالي رغم التفوق العددي فإن فعالية الأسلحة النارية الأسبانية أجبرت المقاومين على التراجع أمام الهجوم الأسباني المضاد وخروجهم المفاجئ من مواقعهم . (Gaid, M., 1976: 116.)

وذكر ابن سليمان في كعبة الطائفين 222/2 أن الفقيه محمد بن ملوك بن عبد القادر العامري والوالي الصالح محمد السائح وولده قد استشهدوا في مقاتلة كفار وهران سنة 1053هـ.(سعد الله ، 1982، ج.1 ، الهامش رقم 199:131.)

ومن العلماء ـ الذين ساهموا في الفتح الأول 1708م، في عهد الباي مصطفى بوشلاغم ـ مصطفى بن عبد الله بن مؤمن الرماصي المشهور بالقلعي درس في مازونة ، ثم رحل إلى مصر لطلب العلم واكتساب الآداب ، وذكر صاحب تعريف الخلف أن من تآليفه (شرح متن السنوسية). (الحفناوي، 1991: ج.2 .443)

محمد بن توزينت العبادي التلمساني الذي يعد من القراء المشاهير ، وقد عرف عنه العلم والجهاد معا ، ذلك أنه توفي مجاهدا ضد الأسبان سنة 1118، أي أثناء الفتح الأول لوهران. (سعد الله ،1982: ج.2، ص.23.)

أحمد بن ثابت ، الذي قاد الطلبة في الحرب ضد الأسبان في وهران مثل شيخه . لكنه لم يمت في تلك المواجهة بل ذكر عنه أن ثار على الأتراك سنة 1150، وأنه اضطر إلى الهجرة والوفاة في المهجر. (سعد الله 1982، ج.2 ، الهامش رقم 30: 24.)

وعلي أبو حسون العبدلي فقد روى الجامعي أن هذا الشيخ ومن كان معه من السكان في حوز تلمسان ، غير آمنين ولا ينعمون بنوم هادئ ، مما جعلهم يلجئون إلى إقامة الحراسة عليهم .

وفي معركة تحرير وهران الثانية سنة 1792 . جند الباي محمد الكبير بعض العلماء وطلبتهم ، وأمرهم أن يتوقفوا عن التدريس في المدن ، وأن يدرسوا بدل ذلك في الرباطات والمراكز الأمامية مثل جبل المائدة المطل على وهران وأمر عليهم الشيخ محمد الموفق بوجلال (يعتبر من أبرز العلماء والمدرسين في عصره ، وكان وقت تامير الباي له أستاذا بارزا في معسكر) وإلى جانبه الشيخ طاهر بن حوا قاضي معسكر (من كبار علماء عصره تولى قضاء معسكر.)

واستجاب الشيخ محمد بن علي الشارف المازوني لدعوة الباي ، فالتحق بالرباط هو وولده الشيخ هني وأخوه السيد محمد ومعهم نحو مائتي طالب . وأعطاهم الباي السلاح والعدة أنظر(حساني: .342- 343) .

ونجح الباي محمد الكبير في تجنيد نحو 400 طالب. وقام بتسليحهم وتدريبهم على خوض الحرب ، وقدم إليهم الأطعمة والعتاد كل شهر. (أنظر المزيد في، ابن سحنون: 235.)

ووعندما وقعت المواجهة مع الأسبان استشهد الشيخ ابن حواء. وقد رثاه ابن سحنون بقصيدة مطلعها :

عز نفسك عن صروف الزمان كل شيء على البسيطة فان

(ابن سحنون: 237- 239.)

قائمة المراجع :

أ ـ باللغة العربية :

ـ ابن رقية ، محمد التلمساني : الزهرة النيرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، العدد، 3 ، 1967. صص. 2- 32.

ـ ابن مريم ، أبو عبد الله محمد : البستان في ذكر العلماء في تلمسان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1986 .

ـ ابن ميمون ، محمد : التحفة المرضية في الدولة البكدشية في بلاد الجزائر المحمية ، تحقيق وتقديم الدكتور محمد بن عبد الكريم ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981.

ـ البوعبدلي ، المهدي ، أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التركي من خلال مخطوط "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني " ، الأصالة ، العدد، 8 ، ماي – جوان 1972 ، صص. 273 – 292 .

ـ البوعبدلي ، المهدي : الرباط والفداء في وهران والقبائل ، ـ الأصالة ، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، الجزائر ، العدد 13 ، مارس- أفريل ، 1973 ، صص.19- 37 .

- بوعزيز ، يحي : وهران ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، رغاية ، 1985 .
1978.
- حساني ، مختار : تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الأسباني خلال القرن الثامن عشر الميلادي من خلال مخطوطتين : فتح مدينة وهران للجامعي ، الرحلة القمرية لابن زرفة ، جامعة الجزائر ، مخبر المخطوطات ، الجزائر ، 2003.
- الحفناوي ، أبو القاسم : تعريف الخلف برجال السلف ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 1991 ، ج .2.
- الراشدي ، أحمد ابن سحنون : الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ،تحقيق وتقديم : المهدي البوعبدلي ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، 1973.
- سعد الله ، أبو القاسم : أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المجلد الأول ، دار الغرب الإسلامي ، ط.5، بيروت ، 2005 .
- سعد الله ، أبو القاسم : تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16 – 20) ، ج . 1 ، الشرطة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1980 .
- فكاير، عبد القادر(2001): الصراع الجزائري الأسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن السادس عشر ، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الحديث والمعاصر ، جامعة الجزائر ،الجزائر.
- مجهول : تاريخ مجيء الصينيول ، المكتبة الوطنية الجزائر ، رقم 2285 .
- المشرفي ، عبد القادر : بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبان بوهران من الأعراب كبني عامر ، تحقيق ، محمد بن عبد الكريم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

ب ـ باللغة الفرنسية :

- Arnaud,(L.) "voyages extraordinaires et nouvelles agréables par Mohamed Abou Ras ben Ahmed ben Abdelkader en-Nasri, Histoire de l'Afrique septentrionale", *Revue Africaine*, 1878, 1879; 1880 ,
- Feraud , (Charles) : "Conquête de Bougie par les espagnols , d'après un Manuscrit arabe" , *Revue Africaine*, T.12 , 1868 .pp.245-256 , 337-349 .
- Feraud(L.): "Récit indigène de l'expédition d'Oreilly, en 1775", *Revue Africaine*, No 9, 1865, O.P.U., Alger, 1985, pp.180-193 , 303-306.
- Gaid (Mouloud): *Histoire de Bejaia et sa région depuis l'antiquité jusqu'à 1954*, S.N.E.D., Alger, 1976.